٩- مملكة غرناطة

(٦٦٥ ـ ٨٩٨هـ / ١٢٦٦ - ١٤٩٢م)

لا يُجْمِلُ خصائص الفصل الأخير من تاريخ الأندلس ـ وهو عصر مملكة غرناطة، على رغم طوله وأهميته لنواح كثيرة مختلفة من الثقافة الأندلسية ـ إلا عبارة واحدة: هى أنه كان ذيلاً على تاريخ الأندلس. كان النصارى قد مكَّنوا لأنفسهم فى الطرف الجنوبى للأندلس نتيجة لانتصارات الملك القديس فرناندو، وتَدافعَ المسلمون المُخْرَجون من ديارهم نحو الجنوب زرافات مروَّعة ليحتموا فى شعاب جبال بيتيس[١] الجنوبية أو لينتشروا فى بسائط مالقة. وهكذا لجأ بقايا مسلمى الجزيرة إلى ركن ضيق من الجزيرة وتزاحموا فيه، وانصرفوا إلى بناء قصور الحمراء، ومضوا يصنعون الخزف والأسلحة وينسجون المنسوجات ليشتروا بها حريتهم. وفى هذا المعقل الأخير الذى لجأوا إليه اجتهدوا فى الحفاظ على أراضيهم مستعينين تارة بقشتالة، وقد كانوا فى ولائها، وتارة أخرى باستصراخ بنى مرين أصحاب العدوة المراكشية، وتارة ثالثة بأساليب السياسة الذكية القادرة، ولكن كيان دولتهم انهار مع الزمن بسبب ما كان ينخر فيه من سوس الاستبداد والفوضى.

وقد عاش فى ربوع غرناطة خلال ذلك العصر مئات من رجال الشريعة والفقهاء والشراح والمفسرين والمصنفين، عاشوا جميعًا على ثمرات الأعصر الذاهبة. وقد أَطْلَعَت سماء الشعر الأندلسى مع ذلك عَلَمين ممتازين، لم يكن

(١) بيتيس Betis هو الاسم الذى أطلقه اليونان على جنوبى إسبانيا الذى عرف فيما بعد بأندلوسيا نسبة إلى الوندال (أصله فندالوسيا) ومنه جاء لفظ الأندلس.

مصدر امتيازهما شيئًا جديدًا أتيا به، وإنما أنهما استطاعا أن يردِّدا أصداء الماضى المُوَلِّى فى نغم نادر الجمال والروعة؛ أولهما هو الوزير لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ ـ ٧٧٦هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٤م)، وكان كاتبًا مكثرًا وأديبًا بليغًا ومؤرخًا وشاعرًا قُدِّرَ له أن يختم حوليات الأندلس المجيدة أقوى ختام وأعظمه فى النفس وقعًا. وكان ثانيهما وزيرًا أيضًا، وهو محمد بن يوسف الشريحى المعروف بابن زمرك (٧٣٤ ـ ٧٩٦هـ / ١٣٣٣ - ١٣٩٣م)، وكان تلميذًا لابن الخطيب، وكانت له رغم ذلك يد فى مصرعه المفجع، وقد قُدِّرَ له هو الآخر أن يلقى مثل هذا المصير المحزن. ولقد كان ابن زمرك آخر وتر رجَّع أنغام ابن خفاجة، وأشبهه كذلك فى أن ديوان أشعاره نشر فى آنق ثوب وأفخره: لقد زُيِّنتْ جدران الحمراء بأشعاره، ونقشت أبياته فيها حول الكُوَى وعلى أحواض النوافير، ديوان رائع لا يبلى جِدَّةً ! يزيِّنُ النافورات ويجمِّلُ الجواسق الساجية فى ظلال الأحزان !

وقد أوفى الإسلام الغربى فى ذلك الحين على غاية قواه الإبداعية، وصافح بهذه النهاية مطالع النهضة الأوربية، وما كتابات ابن خلدون إلا إرهاصًا بهذه اليقظة. وقد كان ابن خلدون من أصل أندلسى، وردَ مناهل العلم فى المغرب، وسفر للأندلسيين عند بدرو القاسى وللمشارقة عند تيمورلنك، وعنده يلتقى العالمان: عالم تميل عنه الشمس وتهبط عليه صفرة الأصيل، وعالم تطلع عليه مبشرة بفجر جديد.

وانقضت أيام بنى نصر فيما بين لعب بالصوالج عند «باب الرملة» وغارات سريعة تنقضُّ على «البِقَاع» La Vega[1]، وحروب تضرج بدماء بنى سراج، وجوارٍ نصرانيات يُسبين ويؤتى بهن إلى غرناطة، ومبارزات تدور بين فرسان، ومدائن تستغلب ويفوز بها العدو كأنها عرائس سبايا، ثم لا تلبث صلوات الشكر المسيحى أن تُسمع فى جوانب البلاد الضائعة وتتردد فيها تراتيم العذراء: سلامًا

(١) المراد هنا «بقاع غرناطة»، وفى الأندلس كثير من المواضع يحمل هذه التسمية.
راجع عن هذا اللفظ ومرادفه الإسبانى:
Asin Palacios: Contribución a la toponomia árabe de Espana. Madrid, 1940.

يا مارية![1].. ثم تتعاقب الحوادث سراعًا نحو الخاتمة: يخطو على مسرح الحوادث قائد الفتيان El Alcaide de los Donceles[2]، ثم يخطر طيف «شريفة» الجميلة، ثم يخوض أبو عبد الله معركته الأخيرة، ويبلغه سقوط آخر معاقل غرناطة، فيعدو من قصره نادبًا: يا لَلْحامة! Ay de mi Alhama، ويتلقفها القُصَّاص من فمه لينشئوا حولها القصائد، وينتهى كل شىء.. وفى ذات يوم يلج الملكان الكاثوليكيان (فرناندو وإيزابلا)[3] أبواب غرناطة، ويستقران فيها

(١) هو الترنيم الكنسى المسيحى المعروف Ave Maria! .

(٢) هو Diego Fernàndez de Córdoba، الملقب بقائد الفتيان، كان أول الأمر صديقاً لأبى عبد الله الزغل آخر ملوك غرناطة، وسفر لديه مراراً، ثم تولى آخر حلقات الصراع معه: cf: Antonio de la Torre, Los Reyes Católicos y Granada, (Madrid, 1949), Indice.

(٣) أجمل المؤلف هنا الخطوات الأخيرة للحرب بين بنى الأحمر وملوك النصارى حتى سقوط غرناطة على نحو فنى يروع النفس، فقد اقتبس العبارات من أناشيد القصاص الشعبيين الإسبان التى تصور هذا الصراع فى صورة أسطورية فياضة بالجمال والقوة. ومن الطريف أن هذه الأناشيد تعطى المسلمين حقهم من المديح فى كثير من الأحيان، كالقطعة المسماة «ابن الأحمر Abenámar » التى يثنى القصاص فيها على ابن الأحمر، ويرسل على لسانه شعرًا جميلاً يدافع به عن نفسه بعد وقوعه فى الأسر. ومن ألطف هذه الأناشيد، الأنشودة الذائعة الصيت التى أشار إليها غومس هنا، وعنوانها: «يالَلْحامة!»، ولا بأس من إيراد أبيات منها:

مرَّ الملك المغربى
ببلدة غرناطة
من باب إلبيرة
إلى باب الرملة
[وهو يصيح:] يا للحامة!
وكانت قد أتته الرسائل
[تنبئ] بسقوط الحامة
فألقى الرسائل فى النار
وقتل الرسول
[وصاح:] يا للحامة!
فترجل عن بغلته
وامتطى صهوة فرس وأسرع
إلى زَقَطين فى الأعالى
ثم أسرعَ إلى الحمراء
وهو يصيح: «يا للحامة!»
وعندما صار فى الحمراء
أمر فى التو
بأن تضرب طبوله
وينفخ فى بوقه الفضى
وصاح: يا للحامة!... إلخ.

لينعما بالأحلام فى قاعاتها المرمرية، ويصبح الفن النَّصْرِى الجذع الذى ستطلع منه أغصان الفن الإيطالى الكلاسى، والأصل الذى ستنقل عنه الزخارف التى برع الفنانون الإسبان فى نقشها على الفضة خلال القرن السادس عشر. وبعد ذلك بقليل، وفى ظل الجدران التى نقشت عليها أبيات ابن زمرك، جلس بوسكان ونافاجييرو[1] يسمران بأحاديث الشعر والأدب.

وإن ما بين أيدينا من ضروب الشعر التاريخى الإسبانى الذى ظهر فى ذلك العصر لأقربُ إلى الطبيعة الشاعرية مما أُثر عنه من شعر خالص، ومصداق ذلك ما نجده فى «الأشعار الثغرية» و «مدوَّنة قَسٍّ القصور» Cronica del Cura de los Palacios، و«القصة الموريسكية» Novela Morisca، ولن نورد من ذلك الضرب نماذج هنا، إذ إنه لا يدخل فى مجال بحثنا.

* * *

(١) خوان بوسكان Juan Boscán، شاعر إسبانى عاش بين سنتى ١٤٨٧ (أو ١٤٩٢) و ١٥٤٢م. وأندريا نافاجييرو Andrea Navagiero سفير إيطالى وفد على بلاط شارلكان، وكان واسع الثقافة ضليعًا فى الآداب، وقد لقى بوسكان فى غرناطة سنة ١٥٢٨م وحفزه على صياغة شعره على الأوزان الإيطالية.